ينقسم كتاب «الأدب العربي في ظل الحرب...» إلى قسمين كبيرين، يضم كل قسم منها ستة فصول، فضلاً عن فصل أخير أضافه الكاتب في أثناء إعداد الكتاب للنشر، ويتناول الأعمال التي ظهرت عقب حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

يعالج القسم الأول المظهر السلبي للنزاع العربي - الإسرائيلي أدبياً، من حيث غيابه عن الإنتاج الأدبي العربي، لأن قضية فلسطين ظلت، حتى حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، بالنسبة إلى غير الفلسطينيين، مسألة تضامن فكري وشعوري بعيدة عن الممارسة الفردية. ويستشهد بلاص، على ذلك، بقول سارتر: «إن الأديب يكتب إلى جمهور قريب عن مفاهيمه وتجاربه. للأديب موقف من عصره، فلكل كلام صداه، ولكل صمت أيضاً».

وربما لم يكن غياب الكاتب العربي غياباً كلياً عن القضية. فهناك عدة أعمال عالجت موضوع حرب ١٩٤٨ مثل رواية «طريق العودة» ليوسف السباعي ومسرحية «وطني عكا» لعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهما. إلا أن تلك الأعمال اتصفت بالتسطيح وغياب الوعي؛ ذلك أن موضوع «طريق العودة» مثلاً، ليس حرب العام ١٩٤٨ في ذاتها، بل «يتعلق بمغامرة غرامية بين ضابط مصري شاب وزوجة زميله في المعركة. وجاء الكاتب بقضية فلسطين ليزوّد بطله بمخرج من الورطة التي تردّى فيها». وعن مكانة فلسطين في وعي البطل، يقول الكاتب يوسف السباعي «ولم تنل مشكلة فلسطين من تفكيره أو احساسه .. إلا بالقدر الذي تناله مآسي الغير التي تمرّ على عناوينها في الصحف .. وعندما بدأت الحرب ضد اسرائيل... لم يحاول أن يكوِّن لنفسه رأياً فيها». غير أن مثل تلك الكتابات كانت تشير إلى إهمال العرب للفلسطينيين ولقضيتهم، وهو إهمال يتضح أكثر في انتاج الكتّاب الفلسطينيين.

فقبل العام ١٩٤٨، ومنذ الثلاثينات ظهرت القصة القصيرة مع خليل بيدس ثم محمود سيف الدين الإيراني ونجاتي صدقي ويوسف عيسى اليندك الذين اهتموا بالجوانب الطبقية في الأدب لكنهم «لم يشاركوا في الاتجاه الوطني المناهض للحركة الصهيونية». وكانت هناك أصداء للنزاع العربي - الاسرائيلي في كتاباتهم، بشكل أو بآخر، كما في رواية «الوارث» لخليل بيدس الذي «لا يتطرق بتاتاً إلى موضوع المواجهة اليهودية - العربية في فلسطين. ولكنه يعبر عن موقف عدائي لليهود كيهود» حسب تعبير بلاص. أما اسحق موسى الحسيني، في روايته «مذكرات دجاجة»، فانه يعكس الصراع بطريقة الرمز، وهي نفس الطريقة الرمزية التي يتوخاها نجاتي صدقي في «الأخوات الحزينات» لوصف مشاعر الاحباط والحيرة لدى العرب تجاه انتصار المشروع الصهيوني على أرض فلسطين

وبعد العام ١٩٤٨، صار الأدب الفلسطيني، بفرعيه، يصور البطل انساناً ذا شخصية مزدوجة الانتماء، الانتماء إلى الأرض والشعب، من ناحية، وإلى الدولة التي يعيش في ظلها، من ناحية أخرى. انه تصوير لشعب ممزق ومشتت، وهو ما قام به اميل حبيبي وسميرة عزام وتوفيق فياض وغسان كنفاني وعيسى الناعوري ويوسف شرورو وغيرهم. ويستنتج المؤلف، من أعمال هؤلاء، ان بلورة الوعي القومي الفلسطيني تمت، بالنسبة إلى الذين ظلوا في البلاد، من خلال الممارسة اليومية للواقع وبتوجيه القوى اليسارية التي دعت إلى التضامن مع أبناء الشعب المشتت ومع العالم العربي دون التضحية بخصائص الفلسطينيين كأقلية قومية متمسكة بقيمها وأرضها. وهذا الوعي انجب أدباً، خاصة في الشعر، يمتاز بالروح النضالية والعاطفة الحارة، أثار حماس العرب بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧. أما بالنسبة للاجئين، فقد تبلور هذا الوعي من خلال تجربتهم المريرة المتمثلة بخيبة الأمل والاهانات في البلاد العربية، الأمر الذي أدى إلى ظهور قيادة سياسية جديدة وأدب يعكس الواقع ويشير إلى مواطن الضعف.

لكن المؤلف يشير إلى كون هذا الوعي القومي كان من نصيب طبقة المثقفين فقط، ولم تصل جذوره إلى جموع اللاجئين في المخيمات. فحدثت هوة عميقة بين القيادة الفكرية وسلوك الجماهير، وهو ما انعكس بوضوح في حروب ١٩٦٧.

بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كان «الهروب» - بتعبير بلاص - «والبحث عن الهوية» من أهم مواضيع الكتابات الأدبية، فضلاً عن القمع والمضايقات التي يتعرض لها الفلسطينيون من قبل الأنظمة العربية؛